فضل العرب

في أدخلوه من النبات وأساليب الزراعة في أوربا (١)

لمحمود مصطفى الدمياطي

إن ثروة البلاد الاسلامية العربية التي طالما بهرت الغربيين تشهد على ما امتاز به مجتمعهم من نشاط مطرد فقد كان الشعب فيها في مقدمة الزراع ومن أحاسن الصناع وأمهر التجار في العالم القديم . فالزراعة التي تلقوها في أروع المدارس سواء في بابل أو سوريا أو مصر صارت لديهم علماً محققاً حتى أنهم وضعوا لها نظريات فنية منظمة على إثر مشاهداتهم وتجاريبهم العملية التي أجروها في مهارة فائقة . ولم يأنف أزرعهم قدراً من أن يفلح الأرض بيده على الرغم من اعتبار ذلك مما يحط بقدر الانسان في سائر الأمصار الأخرى (٢) . وقد قال الزراعي ابو زكريا يحيي بن محمد بن أحمد الشهير بابن العوام الاشبيلي الذي نبغ في أواخر القرن السادس الهجري ما معناه « أن من حرث الأرض وبذرها وجعلها تنتج غذاء صالحاً للانسان والحيوان يكون قد عمل حسنة يثاب عليها يوم القيامة »(٣) . وامتاز العرب على الأخص بفلاحة البساتين و (تبليد) النباتات ووصف [illegible] الأرض [illegible] الهيدروغرافيا الزراعية [illegible] . وكفانا [illegible] كم كان يبهجهم منظر الأزهار وشذاها لا سيما وأن امراءهم وأغنياءهم لم يبخلوا ببذل المال في سبيل تنسيق حدائقهم

---

(١) اعتمدت في أكثر [illegible] هذا المقال على كتاب التاريخ [illegible] من القرن [illegible] الى سنة تأليفه [illegible] مصادر الجزء الأول منه تبتدئ من سنة ٦١٦ — ١٢٩٥ [illegible] المطبوع في باريس سنة ١٨٩١ [illegible] « [illegible] » و « [illegible] »

(٢) من قبيل ذلك [illegible] محمد دياب بك في كتابه تاريخ العرب في [illegible] [illegible] [illegible] الأندلس [illegible] الأوقات [illegible] في أول [illegible] [illegible] [illegible] هذه [illegible]

[illegible]

(٣) [illegible] في الفلاحة [illegible] [illegible] والأزهار [illegible] الأندلس [illegible] [illegible] والرتب [illegible] والأشجار [illegible]

وجلب غرائب الغروس وأكارم الشجر ومهرة العمال من البلاد النائية لضمان نجاحها. وبهذه الطريقة ادخلوا الياسمين في أوربا والكاميليا الحمراء والبيضاء والورد الأزرق والأصفر ولم يتطلب ادخال النباتات النامية نبذلا جهداً أكثر مما بذلوه فقد جلبوا الأرز من هندالى سبانيا عن طريق مصر وصقلية وقصب السكر عن طريق آسيا الصغرى الى الأندلس والتوت الذي عودوه هواء صقلية واسبانيا والقنب والزعفران وبقلة الهليون المسماة بلسان الاندلسيين الاسفراج وأول من اجتناها الأمير عبد الرحمن الثاني ابن الحكم ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله. والحرشف أي «الحرشوف» والفصولية. ومن الأشجار البرتقال والمشمش والأترج والنخل. قال ابن سعيد والرمان السفري الذي فاض على أرجاء الاندلس وصار لا يفضلون سواه[1] وغير ذلك

ولما كانت ثروة الأرض في البلاد الحارة الجافة في حوض البحر المتوسط تتوقف على تدبير استعمال المياه فقد عرف أهل العراق ومصر منذ القدم طرق تنظيم المياه الجارية واستنباط المياه من الأرض وتوزيعها في ترع الري كما فطنت الحكومات الشرقية المتعاقبة بعد ذلك الى ما لارواء الأرض من الأهمية القصوى حتى نقلها العرب عنهم واستخدموها كلما توفرت أحوال المناخ وطبيعة الأرض وأتاحت لهم استخدام الوسائل الدقيقة بعد ما وقفوا على منافعها. وقد عُني الخلفاء بالانفاق من مالهم الخاص في حفر الآبار وتشييد القنوات ومنح المستنبطين عيون المياه أموالاً جزيلة مكافأة لهم. ومن قبيل ذلك ان الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور حفر آباراً في طريق الحج الى مكة. وأنفقت زبيدة زوج الخليفة هارون الرشيد مليوناً وسبعمائة ألف دينار من أجل قناة. ومن مثل ذلك ان عمرواً بن العاص بعد ما فتح مصر أصلح جسور النيل وترعه وحذا حذوه في ذلك الطولونيون والفاطميون. وأدخل العرب في اسبانيا تستاجين أو دواليب ذوات قواديس تديرها الماشية وقناطر لحجز المياه وترعاً لتوزيعها في شتى النواحي. وأنشأوا محكمة خاصة لتنظيم أعمال الري وتسوية مشاكله. وأوفى ما صنعوه في بلنسية للاستغلال الزراعي هو منشآت ارواء الحدائق. ذلك انهم انشأوا على بعد فرسخين من مصب نهر التوريا قناطر حجز لتوزيع المياه وحفروا سبعاً من الترع على جانبي ذلك النهر لكل منها سبعة فروع أخرى تتخلل السهل كله بحيث تخترق ما يعادلها من الأرض بواسطة (برابخ) من الحديد أو قنوات عالية. وكانوا يفتحون الترع السبع الرئيسية واحدة بعد أخرى حسب أيام الأسبوع فتمتلىء بالماء وتغذي تلك الترع الصغرى التي كانوا يفتحونها ويغلقونها في ساعات معينة من اليوم. وبهذا التوالي كانت كل بقعة من تلك الأراضي تأخذ نصيبها من الماء

(١) قال وسبب تسميته بذلك ان الأمير عبد الرحمن الداخل [illegible] رسولاً [illegible] الى الأندلس بجلب غرائب من [illegible] فغرس [illegible] وأثمر [illegible] الأمير [illegible]